فلسفة التاريخ عند إخوان الصفا

The philosophy of history according to the Ikhwan al-Safa

بازة الحاج [1]
جامعة محمد بوضياف المسيلة elhadj.baza@univ-msila.dz

تاريخ الاستلام: 2023/09/15 تاريخ القبول: 2024/01/11 تاريخ النشر: 2024/06/27

ملخص:

إن المراجعة التي يقوم بها أي دارس لجماعة إخوان الصفا يجد أنهم أصحاب مذهب فلسفي أخلاقي يهتم بجميع العلوم وجوهر مذهبهم هو النظر في جميع الموجودات والبحث عن مبادئها وعن علّة وجدانها وعن مراتب نظامها والكشف عن كيفية إرتباط معلولاتها . ومن بين ما تناولته حركة إخوان الصفا وخلان الوفاء في رسائلها مواضيع تصنّف على أنها تدخل في مجال فلسفة التاريخ وذلك عندما إهتموا بالنجوم والأفلاك وتأثيراتها على الكائنات الحية . لا يختلف إثنان في أن الإنتاج الفكر الإسلامي أحق بالدراسة والتحليل الصحيح ، فمنذ الفتح الإسلامي كان للوعي التاريخي والفكر الفلسفي في التاريخ نصيب كبير من المعرفة النظرية والعملية ، وعلى مرّ تاريخ الإسلام وأزمنته المتعاقبة كانت هذه المعارف تتطور وتتجدّد وتتلوّن بألوان مختلفة كانت تعبّر بصدق عن آراء أصحابها وتجلياتها وإرهاصات عصرها . لقد كان لتأسيس جماعة إخوان الصفا وخلان الوفاء تجاوبا مع أزمة العصر وفي نفس الوقت محاولة منهم لتجاوزها إعتمادا على ما إقترحوه من معارف ورسائل وكان ذلك بأسلوب مبدع ومبتكر يهدف إلى تنوير جيل جديد عن طريق رسائل لم يكتبها مؤلف واحد بل كانت عبارة عن مجهود جماعي نتج خلال قرنين من الزمان .

كلمات مفتاحية : إخوان الصفا . فلسفة التاريخ . الحضارات . حركة التاريخ . الكواكب

Abstract :

undertaken by any student of the Ikhwan al-Safa group finds that they have a moral philosophical doctrine that is concerned with all sciences - and the essence of their doctrine is to look into all existing beings, search for their principles, the cause of their existence, the levels of their system, and reveal how their effects are connected. Among what the Ikhwan al-Safa and Khalan al-Wafa movement dealt with in its messages were topics that were classified as falling within the field of philosophy of history, when they focused on the stars and spheres and their effects on living beings. No two people disagree that Islamic

thought production is more deserving of study and correct analysis. Since the Islamic conquest, historical awareness and philosophical thought in history have had a large share of theoretical and practical knowledge. Throughout the history of Islam and its successive times, these knowledges developed,

were renewed, and were colored in different colors, honestly expressing the opinions of their owners, their manifestations, and indications of their time. The founding of the Brotherhood of Safa and Khalan al-Wafa was a response to the crisis of the era and at the same time an attempt to overcome it, based on the knowledge and messages they proposed, and this was in a creative and innovative manner aimed at enlightening A new generation through letters that were not written by a single author , but rather were a

collective effort produced over two centuries

Keywords : Safa brothers. Philosophy of history . Civilizations . Movement of history . Planets. Heritage

مقدمة :

من الواضح أن الحديث عن بدايات الفكر التاريخي ليس بالأمر الهيّن ، فكثير من الأفكار لم تجد نصيبها إلى الخلود إما لصعوبة أو لتعذّر فعل التدوين في عصور ما قبل التاريخ ، وإما لقلّته في بدايات العصور التاريخية وإنحلاله في الفكر الأسطوري الذي كان يخفي الدلالات المباشرة للمعاني والذي تبعه أيضا غموض وتداخل في الأفكار والمفاهيم الزمكانية . ومع ظهور الوعي التاريخي إحتلت فلسفة التاريخ المرتبة الرئيسية بين العلوم التاريخية والإجتماعية وأصبحت هي الأساس في صياغة الأصول المعرفية لكل مدرسة أو نظرية أو إتجاه . لكن إذا رجعنا إلى الأمة الإسلامية نجد أنها وللأسف لاتزال جاهلة للمكانة الهامة التي تحتلها فلسفة التاريخ ودورها المحوري في هندسة أنماط النظم الإجتماعية والسياسية والإقتصادية الملائمة لإحداث نهضة حضارية تعير من واقع الأمة العربية فتجعلها تأخذ لها مكانة في السلّم الحضاري العالمي . وإنطلاقا من الإنتاج الفلسفي الكبير الذي وصل إليه إخوان الصفا والذي يشمل الفلسفة والتاريخ والدين والفنون و العلوم المختلفة ، أمكننا القول أن الهدف التي رسمته هاته الجماعة هو تنوير الأذهان وتثقيفها وتنويرها . لهذا نريد في مقالنا هذا الأخذ بعيّنة من مضامين فلسفة التاريخ في الفكر الإسلامي ألا وهي جماعة فلسفية غامضة في تاريخ الفكر العربي الإسلامي وهي جماعة إخوان الصفا وخلان الوفاء .

المساءلة المحورية لدراستنا تقترب من فهم فلسفة التاريخ من وجهة نظر حركة إخوان الصفا ولتحليل إشكالية الدراسة إرتأينا إتباع المنهج التحليلي لكونه الأنسب لتتبع آراء جماعة إخوان الصفا وإستخلاص نظرتهم وآرائهم في تفسير التاريخ .

التعريف بإخوان الصفا : جماعة من الفلاسفة عاشوا في النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة ، العاشر للميلاد ، بين البصرة وبغداد ، تبادلوا فيما بينهم بسرية تامة رسائل فلسفية بلغت إثنان وخمسون رسالة ، عرف منهم خمسة ، هم : أبو سليمان محمد بن معشر السبتي المقدسي، وأبو الحسن علي بن هارون الزنجاني ، وأبو أحمد المهرجاني ، وأبو حسن العوفي ، وزيد بن رفاعة . ويعلق الباحث المحدث أحمد الخطيب عن الجماعة بقوله : فإنه مما لاشك فيه أن رسائل إخوان الصفا ليست من تأليف شخص واحد ، بل من تأليف جماعة متعددة ، تتباين معارفهم وأساليبهم ، وهذا واضح جدا في رسائلهم ، وربما كان منهم بعض أئمة الإسماعيلية المستورين ، أو أن هؤلاء الأئمة قد أوعزوا لدعاتهم بكتابة هذه الرسائل لتكون لسان داعية لمذهبهم (الخطيب ، 1984 ، 169)

لا شك أن الدليل التاريخي الوحيد الخاص بإخوان الصفا ما سجله أبو حيان التوحيدي حينما قال " سألني وزير صمصام الدولة في حدود سنة 373 هـ عن زيد بن رفاعة ...فقال يومذاك أبو حيان – وكان يعرف زيد بن رفاعة ويعرف أصحابه على ما يبدو - : لا ينسب إلى شيئ ولا يعرف له حال ..إذ تكلم في كل شيئ ...وقد أقام بالبصرة زمنا طويلا ، وصادف بها جماعة لأصناف العلم وأنواع الصناعة ... ذلك أنهم قالوا أن الشريعة قد دنّست بالجهالات ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة ، لأنها حاوية للحكمة الإعتقادية والمصلحة الإجتهادية ...وصنّفوا خمسين رسالة في جميع أجزاء الفلسفة علميها وعمليها وسموها – رسائل إخوان الصفا وكتموا فيها أسماءهم وبثوها في الوراقين ووهبوها للناس " (عمر فروخ ،1953 ، 13)

تظهر عقيدتهم الشيعية وضوحا تاما في مواضيع كثيرة من رسائلهم ، ولمبالغتهم في التستّر ووجود تفسيرات باطنية لبعض الأشياء والمفاهيم (صائب عبد الحميد. 246) . وجلي أن جمعية إخوان الصفا وخلان الوفاء وجدت بمدينة البصرة بالعراق وأن كل ما تحصلنا عليه عن أفراد هذه الجماعة إعتمادا على رسائلهم " هو أنهم أشخاص عديدون من مختلف الفئات والطبقات ، دون تحديد لأسماء هؤلاء الأشخاص ن ولا سيما بعضهم على الأقل" (فؤاد معصوم. ص45). وهنا يكون الأصح القول أن إخوان الصفا أخفوا أسماءهم عن الناس زهدا في الشهرة وحرصا على حياتهم المهددة من قبل الحكام والعوام في هذا العصر المضطرب . لذلك فضلوا العمل السري وأخذ الحيطة والحذر من جهة وإتباع الحكمة والإستنارة من جهة أخرى (محمود إسماعيل ، 51،1996) . وبخصوص الجانب الفكري نقول أن إخوان الصفا إعتمدوا في منهجهم المعرفي على مناهج شتى ، فقد إعتمدوا السماع والتجربة والبرهان العقلي والحواس ، غير أنهم إعتبروا العقل هو الفيصل في تلقي المعارف وتقويمها ، ومن لا يقبل بهذه القاعدة ويرفض وضع العقل مقياسا لكل القضايا فسيبتعد عن صداقة إخوان الصفا وستتبرأ منه الجماعة "محمود إسماعيل ، 2000، 27)

ونضيف إلى ذلك أنه كانت لإخوان الصفا دعاة ومجالس في كل أنحاء البلاد ومن كل الفئات (إخوان الصفا ،1992، 421) . وإلى معنى قريب من هذا تشير بعض الدراسات بأن الشعوب الإسلامية قد "

عرفت العديد من الأخويات مثل تلك التي نجدها لدى الصوفية والفرق الدرويشية ، إذ نجدها تقوم على فكرة التضامن بين أفراد جماعاتهم وتأسيس تعاملاتهم على العدل والمساواة والأخوة
(فريد حجاب، 1982 ،25).

وعند البحث في هذه الأخويات وفي تاريخيتها نجد أن هاته "الأخويات ليس في حد ذاتها مذهبا أو إتجاها سياسيا بقدر ماهي صفة تحمل على أتباع مذهب ما ، الأمر الذي يفسح المجال امام إعادة النظر في الإعتقاد القائل بأن إخوان الصفا إسم لتنظيم مذهبي وسياسي متميز عن الإسماعيلية " .
(يحياوي إسماعيل ،2022، 212).

لا يخفى على دارس الفلسفة أن إخوان الصفا مدرسة فلسفية قائمة بذاتها ، إشتهرت برؤى وأفكار خاصة ضمّتها رسائلهم الإثنين والخمسين التي إحتوت على الكثير من العلوم المشهورة آنذاك ، من إلهيات ، وفلسفة ، وطبيعيات ، ورياضيات ، ونجوم وأخلاق ، لذا حق لبعض المفكرين وصفهم بأنهم يشكلون الثريا الفكرية في القرن الرابع الهجري . وقد كان للظروف السيئة التي عاشتها الدولة الإسلامية في هذا القرن بالغ الأثر في بلورة فكر إخوان الصفا فكان طموحهم الرئيسي الوصول إلى الغاية القصوى المنشودة وتشمل تحقيق خطوتين، هما : أولا : "تحديد مشاكل العصر ، ومحاولة إيجاد حلول لها ...وثانيا : تحديد الكيان العقلي والإجتماعي للمدينة الفاضلة التي يحاول الإخوان إقامتها "(فؤاد معصوم .1998. 306.

إذن ، نفهم من هذا أن غاية إخوان الصفا هي ترقية الإنسان إلى مراتب عليا عن طريق إدماجه في مجتمع فاضل خال من العراقيل التي قد تمنعه من تجسيد فضيلته وتحقيق سعادته .

يجمع كل الباحثين أن ظهور جماعة إخوان الصفا كان في القرن الرابع الهجري الموافق للقرن العاشر الميلادي على إثر تفكك الدولة العباسية وإنتشار الفساد في الحكم قبل دخول بني بويه إلى بغداد عام 344 هـ وإنتشار الفلسفة اليونانية إنتشارا واسعا ،وكثرة الفرق الإسلامية ونشوب الخلافات بينها في المجالات الإجتماعية والسياسية والدينية . وعلى أية حال فإن " العصر الذي ظهر فيه جماعة إخوان الصفا تميّز بعدة أحداث أولها إنقسام الدولة العباسية في القرن الرابع الهجري بقيام عدة دول نالت سيادة فعلية . فكان السلطان في مركز الخلافة (بغداد) لبني بوبة ، وفي الأندلس لبني أمية ، وفي إفريقيا للعبيديين ،وفي مصر للأخشيديين وفي حلب للحمدانيين ، وفي الجزيرة الفراتية للشيبانيين ،وفي عمان والبحرين واليمامة للقرامطة ،وفي خراسان وما وراء النهر للساسانيين" (رأفت الشيخ 2000. 52)

كان للفلسفة عند إخوان الصفا أهمية خاصة ، فوضعوها في مقدمة العلوم ،وذكروا في رسائلهم أن العلوم التي يدرسها الإنسان تتوزع إلى ثلاثة ميادين هي : العلوم الرياضية والمنطقية ، العلوم الشرعية والوضعية ، والعلوم الفلسفية الحقيقة . ويرى الإخوان أنه لابد من التدرج في النظر في هذه العلوم ، وأول ما " ينظر فيها الرياضيات ،ثم المنطقيات ،ثم الطبيعيات ،ثم الإلهيات" (المرجع نفسه. 54) .

وفي رسائلهم أنهم إتخذوا نهجا عالميا شموليا حيث أنهم أعلنوا أنهم لا يعادون علما بعينه، ولا يتمسكون بمذهب محدد ويتعصبون له، ولا يهجرون كتابا من الكتب ،وأن مذهبهم يشمل المذاهب كلها ويجمع العلوم على إختلاف موضوعاتها ومناهجها.

أما بخصوص العلاقة بين الدين والفلسفة ، نجد أن إخوان الصفاء يسعون إلى التوفيق بين الدين والفلسفة وتسرد نظريتهم على أن العلاقة بين الدين والفلسفة علاقة تكاملية لأن الهدف من الشريعة هو نفس الهدف من الفلسفة ، وأن الفرق بين صاحب الشريعة وبين الفيلسوف في نظرهم فرق في الشكل وليس في المضمون ،وأن العبادة الشرعية شرط للعبادة الفلسفية . وهذا يعني فيما يعنيه أن الفلسفة تأتي في مرتبة تالية للشريعة .أما بخصوص فلسفة جماعة إخوان الصفا السياسية فتعد فلسفة الإنسان المطلق جوهر فلسفتهم السياسية ، وهي واحدة من العقائد الباطنية في الإسلام والقائلة بأن الإنسان عالم صغير وبأن العالم إنسان كبير. (رأفت غنيمي الشيخ 1988 .88)

يؤكد إخوان الصفا أن الفلسفة تعدف إلى تهذيب النفس والترقي من وضع النفس والإنتقال من حد القوة إلى الفعل لتفوز بالبقاء والخلود .أما الغرض من النبوة " تهذيب النفس والترقي هو تهذيب النفس الإنسانية وإصلاحها وتخليصها من جهنّم لتصير في الجنة . وإذا كان هذا هو مدف كل من الشريعة والفلسفة ، إلا أن لكل منهما طريقها المختلف لتحقيق المفصود ، وسبب إختلافهما في نظر الإخوان الطبائع المختلفة والأعراض المتغايرة التي عرضت للنفوس" (محمد فريد حجاب ، 1982، 218) .

نفهم من هذا أن جماعة إخوان الصفا وخلان الوفاء يعتبرون أن التمايز بين صاحب الشريعة وبين الفيلسوف تمايز في الشكل وليس المضمون ، فالمتخصص في الشريعة لا ينسب إلى نظرته ومحاولاته إجتهاداته شيئا مما يقول ، لكنه " ينسبها إلى الواسطة التي بينه وبين ربه من الملائكة التي توحى إليه في أوقات غير معلومة ، أما الحكماء والفلاسفة إذا إستخرجوا علما من العلوم أو صنعة من الصنائع أو دبّروا سياسة نسبوا ذلك إلى قوة أنفسهم وإجتهادهم وجودة رأيهم وفحصهم وبحثهم "(محمد فريد حجاب ، 1982،218) .

إذن مادام هدف كل من الدين والفلسفة واحد عند جماعة إخوان الصفا وخلان الوفاء فقد كانت آراءهم في مجملها تقوم على أساس الجمع بين الشريعة الفلسفية ومن ثم مجّدوا " الفلسفة الممزوجة بالشريعة ووضعوا الحكماء والكهنة في مصاف الأنبياء والرسل ، فمدينة إخوان الصفا الفاضلة تضم إلى جانب أهل الديانات والشرائع البنيوية أهل الآراء الفلسفية والحكمية " (محمد فريد حجاب ، 1982، 219) .

فلسفة التاريخ عند إخوان الصفا :

يجمع كل الدارسين لفكر إخوان الصفا على أن هذه المدرسة لم تخصص مصنّفات خاصة بتفسير التاريخ بشكل مباشر وإنما ورد ذلك في أعمالهم نتيجة عنايتهم بالنجوم والأفلاك وتأثيراتها ، ومن خلال تنبيهم لهذه التأثيرات فإنهم بذلك قد وضعوا ما يشبه نظرة فلسفية في تفسير التاريخ . وعلى العموم ، ونظرا لما عرفه عصر إخوان الصفا من تفكك للدولة العباسية وإنتشار للفساد في الحكم كما ذكرنا سابقا ، تكوّنت لديهم

نظرة شاملة على مشاكل عصرهم وقضاياه فكانت لهم محاولات إصلاحية هدفوا من خلالها إلى معالجة الكثير من المشاكل السياسية والخصومات المذهبية والصراعات المذهبية والقومية (فؤاد معصوم.1998.308)

1- **المشاكل السياسية وتسلط الإدارة** : أول ما سجّله إخوان الصفا في الجانب السياسي أن جلّ الخلفاء والسلاطين الذين مارسوا الحكم في العالم الإسلامي لا يحملون الشروط الواجب توفرها في الحاكم ،وأنهم قد خالفوا عهودهم التي قطعوها على أنفسهم وتجاوزوا القواعد التي حدّدها الإسلام كالنزاهة والصدق ورعاية مصالح المحكومين .ونلاحظ أن إخوان الصفا غالبا ما يندّدون بتسلّط الحكام ووصف تصرفاتهم من خلال قصص رمزية. فما إن يصل الخليفة إلى الحكم حتى يغصب الحقوق ويبادر إلى الفجور ، ويتخذ عباد الله خولا ، وأيامهم دولا ، وأموالهم مغنما (المرجع نفسه .308.1998) .

كما يذكر إخوان الصفا في موضع آخر من رسائلهم ، أن الحاكم لا يصل إلى سدّة الحكم بطريقة مشروعة ، وإنما يعمد إلى فرض نفسه على الشعب بالقوة ، ثم يتحكم في مصائرهم ويتصرّف كما تهوى نفسه. فهذا " السلطان الجائر الذي قد ملك رقاب الناس بالقهر والغلبة ، وإستعبدهم جهرا وكرها ، يتحاكم عليهم كما يشاء ، ويرفع ويكرم من يريد ممن يخدمه ويطيعه ويتصرف بين يديه ، ويتمثل أمره ونهيه ، ويضع ويبعد من خالفه ويعذّب من خانه أو غشّه" (المرجع نفسه.1998. 309) .

وإنطلاقا من هذا الوضع تنتشر ظاهرة الرّشوة بين الولاة والقضاة وكبار المسؤولين ويكثر تبادل الهدايا بين الناس إرضاءا للوزير أو الخليفة أو غيرهما .وإذا كان إخوان الصفا قد ذكروا بالتفصيل المشاكل والمظاهر السلبية الهادمة التي كانت تنخر جسد المجتمع الإسلامي ، فإنهم إقترحوا بعض الحلول لإصلاح الفساد السياسي والإداري والتقليل منه . فالخليفة أو " الرئيس ضروري للمجتمع وهو يتبوّأ أرفع المقام ، وفي يديه مقاليد السلطة إن صلح صلح الحكم ، ولذلك فلابد في من يتولى هذا المركز أن يتوفر فيه جل خصال الأنبياء ، فيكون عاقلا ، بليغا ، محبا للعلم ، صادق ، عادلا ، قوي العزيمة ، زاهدا في أعراض الدنيا" (المرجع نفسه. 1998 .311) .

أي أن يكون ملما بحدود وظيفته ومهامه ومن بينها حفظ الشريعة على الأمة ، وردّ المظالم وصدّ الأعداء وقمعهم، وكف الأشرار ونصرة الأخيار.

2- **الخصومات المذهبية والصراع الثقافي** : كثيرا ما كان يشتكي إخوان الصفا في رسائلهم من كثرة المذاهب والتعصب المذهبي ، وكان سبب رفضهم لهذا الوضع والثورة عليه هو أنه كان وسيلة للزعامة والرئاسة والسيطرة والجاه . ولذلك أبدع البعض أشياءا كثيرة لا تمت للرسول ﷺ بأية صلة ، وقالوا " للعوان من الناس ، هذه سنة الرسول عليه السلام وسيرته ، وحسنوا ذلك لأنفسهم حتى ظنوا أن ما قاد إبتدعوه حقيقة ، وأن النبي عليه السلام أمر به...فتفرّقت الامة وتحزّبت ، ووقعت بينها العداوة والبغضاء أبدا ، وصاروا إلى الفتن والحروب ، وإستحلّ بعضهم دماء بعض"(فؤاد معصوم 1998 .311).

إن الصراع الذي ينتشر بالتدريج ستنتقل آثاره السلبية إلى الحياة الثقافية للأفراد فتزداد حدة الصراع المذهبي بينهم . لذلك إهتم إخوان الصفا بهذا الجانب الثقافي إهتماما كبيرا ، وهاجموا الذين يتعصبون للون معين من ألوان المعرفة أو لكتاب من الكتب . كما بيّن الإخوان ماهية الإختلافات المذهبية وسبل التخلص من نتائجها ، ولا يكون ذلك حسبهم إلا بنبذ التعصب لمذهب من المذاهب ، ويعتبر إطراح الهوى علاجا فعالا لهذه الصراعات المذهبية .هذا العلاج الذي يقدمه الإخوان لمسألة الصراع الثقافي ينبغي أن"لا يكون هناك تعصب لعلم من العلوم ، أو لكتاب من الكتب ...والنظر في كل العلوم والإطلاع على كل الكتب ، ما أمكن ، إذ أن هذه العلوم كلها حلقات يكمّل بعضها بعضا في سلسلة المعرفة الإنسانية" (فؤاد معصوم .1998 .314).

3- **الصراع القومي** :عرف القرن الرابع الهجري صراعا حادّا بين القوميات الكبيرة والنافذة داخل الإمبراطورية العباسية ،وكانت كل قومية تتباهى وتفتخر بقوميتها وبكل المناصب والمزايا التي تحصلت عليها .غير أن هذا الأمر إستوقف الإخوان وخاضوا فيه مؤكدين على قضية المساواة بين القوميات والشعوب ، فليس هناك قومية حققت كل صفات التميّز والتفوّق على القوميات الأخرى، ولا توجد قومية "لها جميع صفات الكمال وقومية خالية منها فالأيام دول ، يدفع عجلة التطور في كل زمان أمة من الأمم أو شعب من الشعوب، ثم تنتقل هذه الريادة إلى أمة أخرى أو شعب آخر" (فؤاد معصوم 1998 . 314).

4- **الجهل أساس المشاكل** : لقد حمل الإخوان هموم وتيه الإمبراطورية العباسية في القرن الرابع الهجري ، كما حملوا هموم التخلف والتعصب والصراع المذهبي ، وحاولوا كمرحلة أولى معالجة ما ترتب عنها من أعراض ، ولم يتوقفوا عند ذلك بل حاولوا إكتشاف الأسباب التي أنتجت هذه المعضلات.

وبعد إستقصاء الظواهر وإختبارها وجدوا أن أسبابها أربعة : سوء الأعمال ، فساد الآراء ، رداءة الأخلاق ، وتراكم الجهالات .غير أن الفحص الدقيق لهذه الظواهر أوصلهم إلى أن الأسباب الأربعة تعود إلى سبب واحد فقط هو الجهل." وأعلم أن سوء أعمالهم (الناس) يكون بحسب آرائهم الفاسدة التي إعتقدوها قبل بحثهم حقائق الأشياء، وأن آرائهم الفاسدة إستحكمت في ضمائرهم بحسب أخلاقهم الرديئة التي إعتادوها منذ الصبا ، وأن أخلاقهم إنطبعت في نفوسهم بحسب جهالاتهم المتراكمة التي غشيتهم في أول الأمر" (فؤاد معصوم1998 .317)

وإضاغة إلى كل هذا ، تذكر الدراسات أن إخوان الصفا وضعوا ما يشكل رؤية فلسفية في تفسير التاريخ ، نذكر أهم مبادئها في النقاط التالية :

أ - **إستعدادات الإنسان وغايتها** : عندما خلق الله تعالى الإنسان زوّده بثلاثة أنماط من الإستعدادات حتى تتغير قدراته وما يتماشى مع الهدف من وجوده ، فأيّد نفسه " أولا بقوى روحانية سائر الكواكب في الفلك ،. ليكون له ممكنا قبول سائر الاخلاق وتعلم جميع العلوم والآداب والرياضيات والمعارف والسياسات ، ثم مزج فيه الأخلاط ، لكي يتهيأ له إظهار جميع الأفعال والصنائع العجيبة " (صائب عبد الحميد ، 247) . والمعلوم أن الغاية المرجوة من كل هذا هو إمكانية تشبّه الإنسان بالخالق بإعتباره خليفته في الأرض

ويشغل عالمه الفسيح والمترامي الأطراف . كما رسم الله للإنسان الوصايا الناموسية والرياضيات الفلسفية ، لأن الإنسان " نفس وجسد مزوّد بالقوى النفسية الروحية والعقلية والبدنية المادية ليؤدي وظيفته في إعمار العالم ، الذي إستخلفه عليه خالقه ، وليؤدي ذلك وفق – السياسية الربوبية- بما تدل عليه الوصايا الإلهية ، وصولا إلى الغاية الأخروية" (صائب عبد الحميد ، 247)

ب - **علة إختلاف أخلاق الناس و توجهاتهم** : أشارت بعض الكتب إلى أن جماعة إخوان الصفا وخلان الوفاء ترجع هذا الأمر إلى أربعة أسباب أحدها السبب الرئيسي والبقية تتفرع منه وهي : " أولها إختلاف أخلاط أجسادهم ومزاج أخلاطها وثانيها تربة بلدانهم وإختلاف أهويتها وثالثها نشوئهم على ديانات آبائهم ومعلميهم ومربيهم ورابعها موجبات أحكام النجوم في أحوال مواليدهم ومساقط نطفهم . وهذه العلة الأخيرة هي الأصل ن وباقيها فروع عليها "(صائب عبد الحميد ، 248) . وتفسير ذلك ان طبيعة البلدان تابع لهوائها ، وأن هذا الهواء يؤثر بطريقة أو بأخرى على أمزجة الأخلاط ، وهذا الإختلاف كما تقول جماعة إخوان وخلان الوفاء يؤدي إلى تمايز وإختلاف أخلاق أهلها وطباعهم وعاداتهم ولغتهم وآرائهم ومذاهبهم . كما تؤكد جماعة إخوان الصفا أن إنتقال الكواكب في أدوارها الطويلة تتمايز شعاعاتها على كل أجزاء الأرض وهواءات البلدان ، فيؤدي ذلك إلى إختلاف تعاقب الليل والنهار وفصول السنة سواء بالزيادة أو النقصان أو الإعتدال والتساوي .

ج- **علل الحوادث في الكون** : تؤكد جماعة إخوان الصفا وخلان الوفاء ان كل ما يقع في الكون من حوادث تابع لدوران الفلك ، ومن الأدوار ما هو طويل وما هو قصير فما " كان من الحوادث سريع النشوء ، قليل البقاء ، سريع الفساد فذلك عن حركة في الفلك سريعة قصيرة الزمان ، قريبة الإستئناف . وما كان من الحوادث بطيئ النشوء طويل الثبات ن بطيئ البلى ، فذلك عن حركة بطيئة ، طويلة الزمان ، بعيدة الإستئناف " (صائب عبد الحميد ،249) وإنطلاقا من هذا تصبح الأدوار والقرانات هي سبب الحوادث في الكون وتصبح بدورها بعدئذ مصدر ا لإسقاط الحوادث على الكائنات .

وكشرح تفصيلي للتأثير المتسلسل للكواكب على كل ما يحدث في الكون ، يركّز إخوان الصفا وخلان الوفاء مثلا على حركة خاصة من حركات المريخ في أدواره فينجلي النّضج والنمو في المعادن والنباتات وكل الحيوانات ، وتظهر " الدولة في بعض الأمم وتزداد قوة بعض السلاطين وحتى إذا تخلّل ذلك شيئ من الفساد الناتج عن الحروب وزوال بعض الدول ، فإنه في جنب ما يكون عند هذه الحركة من الخير في العالم شيئ يسير . ونحو هذا التأثير يحدث مع بعض حركات زحل ، ولبقية الكواكب تأثيرات مغايرة ، فبعضها مؤذن بالخراب والفساد وزوال الدول والمماليك وكثرة الحروب وهكذا "(صائب عبد الحميد ،251) .

نظرية الدورة الحضارية : يؤكد إخوان الصفا أن كل كائن في العالم له أربعة مراحل مختلفة : إبتداء كون الوجود ، زيادته ونموه وإرتقاؤه إلى نهايته ، توقفه وإنحطاطه ونقصه ، بواره وعدمه. وما يفسر هذا التعاقب هي نظرية الأدوار والأكوار والقرانات .

فكل الحوادث التي تكون في عالم الكون والفساد هي تابعة لدوران الفلك وحادثة عن حركات الكواكب ومسيرها في البروج ، وقرانات بعضها مع بعض . فمن الأدوار والقرانات ما هو طويل وما هو قصير .
وما كان من الحوادث سريع النشوء ، قليل البقاء ، سريع الفساد ، فذلك عن حركة في الفلك سريعة ، قصيرة الزمان ، قريبة الإستئناف . وما كان من الحوادث بطيئ النشوء ، طويل الثبات ، بطيئ البلى فذلك عن حركة بطيئة ، طويلة الزمان، بعيدة الإستئناف (صائب عبد الحميد ، د ت .249) .
ذلك أن كل عنصر في الفلك له حركة دائرة وأن هذه الحركة تمر بأربعة أحوال: " صعود من الحضيض ، فصعود إلى الأوج ، ثم هبوط من الأوج ، وأخيرا هبوط إلى الحضيض. هذا القانون تخضع له الدول والممالك أيضا ، فهي تمر بمثل هذه الأدوار الأربعة تباعا ، حتى تفنى لتظهر مكانها ، أو في مكان آخر ، دولة جديدة في دورها الأول وكل ذلك بموجبات أحكام القرانات" (صائب عبد الحميد. 251).
وبناءا على نظرية الأدوار يكون إخوان الصفا قد وضعوا مقياسا للتنبؤ بالمستقبل في التاريخ . ومن محاسن هذا التحليل أنه يجعل من عملية التنبؤ كما وضّحنا أمرا ميسورا بل في كامل الوضوح . وإستطاعوا بواسطة الحس الذي إمتلكوه أن يترقّبوا " زوال الدولة التي إضطهدت الفلسفة وأرغموا هم فيها على التستّر ، لأي سبب كان فتنبّؤوا وفقا لهذه النظرية بقرب زوالها ...يبدوا من هذا أن جماعة إخوان الصفا وخلان الوفاء قد إستدلوا على وقت إنقضاء
الدولة العباسية من القرانات التي يستدل بها على إنتقال الدولة والملك من أمة إلى أمة ، أو من بلد إلى بلد ، أو من أهل بيت إلى أهل بيت " (صائب عبد الحميد ،252)
لا تتوقف جماعة إخوان الصفا عند هذا التفسير النجومي بل تشير أيضا إلى أن التعاقب الدوري إنما يكون تعاقبا بين دولة أهل الخير ودولة أهل الشر وذلك تأسيسا وقياسا على تعاقب الليل والنهار وتعاقب الحرارة والبرودة وكلما ذهب أحدهما حل محلّه الآخر .، فتارة تكون الدولة والقوة لأهل الخير وتارة أخرى تكون القوة لأهل الشر .
وما تجدر الإشارة إليه في هذا الإطار أن النظرية الدورية " في تفسير نشوء الحضارات وإختفائها فهي من النظريات القديمة التي عاودت الظهور على أيدي إخوان الصفا وقال بها كثير من فلاسفة أوروبا الحديثة من بينهم فيكو وشارل فريديريك كروز وأخيرا إشبنجلر ، وإنما وقع الإختلاف في التمثيل ، وفي التفسير وهو العنصر الأهم الذي يعطي هذه النظرية قيمتها ، والذي بدونه لا تتجاوز قدر الملاحظة العامة للظواهر التاريخية "(صائب عبد الحميد ،254)
*مدينة إخوان الصفا : رسم إخوان الصفا مخططا لمدينتهم الفاضلة رسما دقيقا أقاموا أساسه الأول على تقوى الله أي على الإيمان ، فالمجتمع الذي يغيب فيه الإيمان مجتمع مفكّك ومنهار وهالك لا محالة . ومن البديهي ، بل من الضروري ،أن يكون لكل مجتمع أو أمة رئيسا أو خليفة حيث توكل إليه مهمة الحفاظ على الأمن والإستقرار داخل المجتمع . وما دامت هذه الصفات لا تتوفر سوى في الأنبياء ، وبهدف سدّ المنافذ أمام الطامعين للسلطة ،فإن إخوان الصفا يقترحون تكوين مجلس أو هيئة تسند لها تسيير

المدينة الفاضلة .وهذا " المجلس هو أعلى سلطة في المدينة ، ومهمته ليست سياسية أو إدارية فحسب ، بل دينية وفلسفية وأخلاقية أيضا" (فؤاد معصوم .322)

وتجدر الإشارة هنا إلى ذلك التشابه الكبير بين المدينة الفاضلة لإخوان الصفا وجمهورية أفلاطون ، فكلاهما يجعل الفضيلة هي المعرفة وهي وسيلة رقي الإنسان وتقدمه وسعادته ، كما يلتقيان في دور التربية في ترسيخ بنيان المدينة، وكذا دور الدولة كمؤسسة تعليمية تعمل على إعداد مواطن صالح وحاكم عادل يكون ذا مؤهلات خاصة وقد وصل إلى أعلى درجة في العلم والأخلاق . أما إذا أردنا المقارنة بين أخوان الصفا والفارابي فسننتج تأثرهم الكبير به وخاصة في معتقدات المدينة الفاضلة. كما أن هناك" نقطة لابد من الوقوف عندها للمقارنة بين الإخوان والفارابي ، فقد أهمل هو الوسيلة لبناء مدينته ، على رغم إهتمام أفلاطون بها ، بينما أدراك الإخوان خطورتها وأهميتها ودورها الفعال في بناء المدينة وصيانتها ونموها ، وتلك الوسيلة هي التربية" (فؤاد معصوم.32)

من خلال كل ماسبق نصل إلى أن هدف إخوان الصفا من إقامة مدينتهم الفاضلة هو إعداد الإنسان نفسيا وفكريا وخلقيا وإجتماعيا للوصول إلى الحياة الروحية السعيدة .خاصة وأن الخلافة العباسية آنذاك عرفت صراعات مذهبية وسياسية وإقتصادية .وربما هذا ما أدى بالباحثين إلى إعتبار رسائل إخوان الصفا أول مؤلف "يتناول الأوضاع السائدة في العالم الإسلامي بالتحليل والنقد ، ويشخص مشاكل العصر ، ويضع لها الحلول . والإخوان لم ينحازوا إلى السّلطة التي فقدت شرعيتها ، ولم يهادنوها ، كما لم يهربوا من الواقع ، بل واجهوه ، وقرّروا إنقاذ العالم الإسلامي من التطاحن الدامي بين عدة أسر تتنازع السلطة ، ويجرّ هذا التطاحن وتلك الحروب بين هؤلاء العالم الإسلامي إلى مآس وكوارث" (صائب عبد الحميد. 329).

مفهوم الأمة عند إخوان الصفا : يمكن القول ان الأمة جماعة من البشر حصلت على الإعتراف وإنفردت بميزات وسمات خاصة من حيث الشكل سواء تعلق الأمر بالأفراد أو الجماعات ، وبتعبير آخر تبلورت معالم شخصية إجتماعية وثقافية خاصة بالجماعة نفسها . ويمكن إعتبار وحدة الدين معيارا من معايير تحديد الأمة أحيانا ، وقد " تضم الأمة عناصر ممن ينتمون إلى أديان مختلفة أحيانا أخرى . ويتوقف إعتبار الدين عنصرا من عناصر تكوين الأمة على الدور الذي يلعبه في المصالح المشتركة للجماعة المكونة للأمة م بحيث إذا كانت مصالح جماعة معينة تدين بدين ما تتعارض مع مصالح جماعة أخرى تدين بدين آخر . لعب الدين دورا بارزا في تحديد مفهوم الأمة ، ويقل هذا الدور أو لا يكون له شأن إذا ما إضطرت المصالح المشتركة لجماعة تدين بأديان مختلفة إلى تكوين أمة واحدة في مواجهة أمم أو جماعات أخرى " (محمد فريد حجاب،1982 ، 321) .

ويذكر إخوان الصفا عند تحديدهم لمفهوم الامة أن لكل أمة مميزات وسمات خاصة تنفرد بها لوحدها ، وعلى أساس هذا الفهم إشترطوا لتكوين الأمة مجموعة من العناصر ولاشك أن أهمها :

- وحدة اللغة

- وحدة الطباع
- تشابه الاخلاق
- وحدة الموقع – الأماكن –
- تشابه الألوان
- تشابه تركيب الأبدان
- الإشتراك في العادات والتقاليد "(محمد فريد حجاب،1982 ، 322)

ورغم تعدد التعريفات للأمة والتي جاءت بعد عصر إخوان الصفا إلا أن الملاحظ عليها أنها لم تكن في حقيقتها إلا توسيعا أو تعديلا لهذا التعريف فمن التعريفات من ركّز على عنصر وتمسك به وأهمل العناصر الأخرى .

أما عن الدين " كعنصر من عناصر تحديد مفهوم الأمة ، فإن موقف الإخوان من هذه المسألة قد يبدو غامضا بسبب نظرتهم الخاصة للدين فهم يرون أن الدين واحد ولكن شرائع الأنبياء هي التي تختلف بحسب أهل كل زمان وما يليق بهم أمة أمة ...وفي مواضع أخرى من الرسائل يرون أن كل شريعة من هذه الشرائع تتفق في غرضها ومقصودها مع العلوم الحكمية والفلسفية ، أي أن الإختلاف بين هذه الشرائع هم إختلاف ظاهري ، أما أصولها جميعا فتتفق وتتجه نحو وجهة واحدة ومقصد واحد ، هو تهذيب النفس الإنسانية وإصلاحها وتخليصها من جهنم عالم الكون والفساد ، وإيصالها إلى الجنة ونعيم أهلها " (محمد فريد حجاب،1982) .

وكتحليل موضوعي لهذا الرأي تتفق الأبحاث على أن إخوان الصفا لا يقصدون من وراء مسألة الدين محاولة إيجاد تفسير يتفق مع أهدافهم كجماعة سياسية تصبو إلى تكوين تكتل من مختلف الأديان والفرق يقوده شخص واحد هو الذي مصدرا للأوامر والنواهي ومختلف الأحكام ، بل إن المعنى الوارد للدين عند الجماعة يتجاوز هذا المعنى بصفة مطلقة .

خاتمة : من كل هذا نستنتج أن أهم ما قدّمه إخوان الصفا في مجال فلسفة التاريخ هو آراءهم المتكاملة في تعاقب الأمم والمماليك والحضارات وإن ركزوا على دولة أهل الخير وبدايات تشكلها من قوم علماء وحكماء يتفقون على رأي واحد ومذهب واحد ودين واحد . لقد لخصوا نظريتهم في تفسير التاريخ في نظرية دورة الحضارات التي كانت أفكارها متناسقة ومتسلسلة وكانت أيضا تفسيراتها الفلسفية صريحة وواضحة من حيث الحيثيات والتطبيقات.

هذا بالإضافة إلى نقطة هامة ظهرت في الفكر الفلسفي لإخوان الصفا تتمثل في التمسك بتلك الفكرة القديمة من أفلاطون وأرسطو القائمة على جعل أخلاق بعد العقول هي الوسائط في الخلق والحدوث والتدبير هذا من جهة ، ومن جهة أخرى نجد أن إخوان الصفا قد طبقوا تلك الفكرة على الصيرورة التاريخية ليصلوا إلى النظرية التي لخصها هيجل لاحقا "العقل يحكم التاريخ ".

المراجع :

1) صائب عبد الحميد ، فلسفة التاريخ في الفكر الإسلامي ، دراسة مقارنة بالمدارس الغربية الحديثة والمعاصرة ، دار الهادي ، د. ط ، د. س .
2) فؤاد معصوم ، (1998) إخوان الصفا فلسفتهم وغايتهم ، دار المدى للثقافة والنشر ، دمشق سوريا ، ط1 ، 1998.
3) رأفت الشيخ ، (2000) تفسير مسار التاريخ (نظريات في فلسفة التاريخ) ، بدون طبعة عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية ، القاهرة مصر .
4) رأفت غنيمي الشيخ ، عام (1988) فلسفة التاريخ ، القاهرة مصر دار الثقافة والنشر والتوزيع .
5) محمد فريد حجاب ،(1982) الفلسفة السياسية عند إخوان الصفا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .
6) يحياوي إسماعيل – حمدينة عبد الله(2022)حقيقة إخوان الصفا من التاريخ إلى الإيديولوجيا مجلة دراسات ،المجلد 11 العدد 01 ، جامعة بشار.
7) إخوان الصفا وخلان الوفاء 1992 رسائل إخوان الصفا ،موفم للنشر الجزائر
8) محمد فريد حجاب ، (1982) الفلسفة السياسية عند إخوان الصفا ،الهيئة المصرية العامة للكتاب .
9) محمود إسماعيل ،(1996) إخوان الصفا رواد التنوير في الفكر العربي ، الطبعة الأولى ،عامر للطباعة والنشر بالمنصورة .
10) محمود إسماعيل، نظريات إبن خلدون مقتبسة من رسائل إخوان الصفا ،دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ، 2000 .
11) عمر فروخ (1953) ،إخوان الصفا درس – عرض – تحليل ، الطبعة الثانية منشورات مكتبة منينمنه بيروت .
12) كوربان هنري ، (1983)، تاريخ الفلسفة الإسلامية ، الطبعة الثالثة ، ترجمة نصيرة مروة وحسن قبيسي ،منشورات عويدات ، بيروت
13) علي سامي النشار ، (1996) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، الطبعة الثامنة ، الجزء الثاني ، ،دار المعارف القاهرة
14) إبراهيم حسن ، (1964) ، تاريخ الدولة الفاطمية ، الطبعة الثالثة، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة .
15) الخطيب م . أ . (1986) الحركات الباطنية في العالم الإسلامي عقائدها وحكم الإسلام فيها ، عمان ، مكتبة الأقصى .